حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي
معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

وكان «الريح» في اشنع حال يرتجف رعدةً وقد خرج الزبد من فمه وتصبب العرق من بدنه وغطى الغبار ثوبهُ الاسود. وكان عليه سرجهُ ولجامهُ مع خُرج متدلٍ على خاصرتيه كان مالك يتخذهُ دائمًا في اسفاره

وقد تعجب الامير رزق الله من قدوم الحصان بلا فارسه واخذ يستخبر عن مالك هل رجع من سفره ولكنهُ مع التفتيش والفحص البليغ لم يعرف لهُ خبرًا اذ لم يرَهُ احدٌ راجعًا لا في بشرّاي ولا في اهدن ولا في أيطو ولا في دارًا ولا في زغرتا ولا في غيرها من الاماكن التي على طريق طرابلس. فحينئذٍ امر بان يُفتح خرجهُ فشاهد فيه كل أمتعتهُ ما عدا الامر الذي وجّههُ لجوسلين. فترجّح عندهُ ان جوسلين تجرأ على قتله او في الاقل على سجنه لانهُ كان يعرف المذكور حقّ معرفة ويعلم لؤم طباعه ويقدّر انهُ لا يحجم عن ضمّ هذه الجريمة الاخيرة الى سائر مساوئه السابقة

وكان الريح يأتي بحركات غريبة استلفتت اليها الابصار واستدعت مشاهدتها الى التأمل والافتكار. وذلك ان الحصان الذي لم يكن احد من قبل يستطيع ركوبهُ ألانَ تلك الطباع الجافية بحيث كان يمكّن من ظهره كل من اراد دون مقاومة وكثيرًا ما كان يصهل صهيلًا ينبئ بشكواهُ ويخفض رأسهُ حزينًا كأنهُ يبكي فراق رفيق حتى كان يتوهّم مشاهدوهُ في بعض الاحيان ان دموعًا تجول في عينيه

واذ ذاك عزم المقدم رزق الله على الذهاب بنفسه للتحقيق وانزال العقوبة بتابعه المتمرّد اذا اقتضت الحال. وفي اليوم نفسه ارسل الاوامر الى الجنود في بشرّاي وما حواليها بان يستعدوا للسفر من غد اليوم التالي الى جهة غير معلومة وان يحملوا من الزاد ما يكفيهم اسبوعين

اما فرا غريفون فاحبّ مرافقة هذه الحملة لغرضين اولهما ان يقدّم للجنود ما ربّما احتاجت اليه الحاجة من المساعدات الدينية والثاني ان يشاهد صديقهُ القديم الاب يوحنا

رئيس دير القديسة تقلا. وكان « الريح » قد انهكهُ التعب فابقوهُ في بشراي في اصطبلات الامير. ورغبةً في كتم سرّ الحملة على جواسيس جوسلين وانصاره اتخذوا كل ما يمكن من اسباب الاحتياط فجازوا بلاد الجبة وجبل عكّار ماريّن على القريات ومقام الرب(١ ومنجز حتى وصلوا الى قلعة فليس في اقل من يوم فاستراحوا هناك قليلاً. وكان الامير رزق الله يستخبر عن مالك فكان كل من في الناحية يقولون انهم رأوهُ ذاهباً ولكنهم لم يروهُ راجعاً. ثم ان جنود صاحب قلعة فليس انضمّت الى جنود المقدم وزحف الفريقان يريدان القليعة

فلمّا كان سحر اليوم التالي استيقظت حامية القليعة مذعورةً من اصوات أبواق الحرب وتراكضت وفي مقدّمتها جوسلين لمشاهدة ما عسى ان يكون. فشاهدت عدداً غير قليل من الفوارس مقبلين على طريق حصن سليمان غير انهم لمّا جازوا العين المعروفة بعين الباردة ووصلوا الى المضيق المؤدي الى عين الشمس ارتدّوا جميعاً الى اليسار وساروا الى ناحية القليعة. وكان الامير رزق الله لابساً لأمتهُ والخوذة في رأسهِ وهو سائر في مقدّمة الكتيبة المتألفة من رجال منتخبين مسلّحين جميعاً بالرماح والأقواس حسب عادة الفاتكة بلبنان في ذاك العصر. وكان قد انضمّ اليهم في الطريق عدد غير قليل من اهالي بلاد عكّار

وكان وراء الخيّالة المذكورين ما بين امتعة الجنود وخيامها صفٌّ من الجمال تحمل المواد اللازمة لبناء الكبوش والمجانيق وسائر آلات الحصار. وفي آخر الموكب كلهِ فرقة من صانعي الألغام وحملة البلطات (بلطجية) من اهالي حلب الذين كانوا مشهورين في كل الشرق بمهارتهم في صنيع الألغام (٢

وكان جوسلين يرصد من اعلى مرقب في القليعة كل هذه القوّة التي لم يكن ليخفى عليهِ القصد من زحفها وقد اقلق بالهُ على الخصوص ما رآهُ محمولاً على ظهور الجمال من الانابيب الحديديّة الطويلة وبما انهُ لم يعرف المقصود منها التفت الى احد جنودهِ الذي كان قد خدم مدة طويلة في عسكر سلطان مصر وسألهُ عنها فاجابهُ الجندي قائلاً:

« ان هذه الانابيب التي تراها هي مدافع تستعمل لقذف النفط. ومنها انواع كثيرة

١) هو اطلال هيكل قديم بالقرب من منجز

٢) راجع راي: المستعمرات الافرنجية في سورية

فبعضها يقذف صواريخ عظيمة (هي قنابل من الورق محشوَّة بالبارود) تقوى على احراق القلاع. وغيرها يقذف كرات من الحديد تختلف زنتها بين عشرة ومئة من الارطال المصريَّة. والمدافع التي رأيتها في مصر هي اكبر من هذه بكثير منها واحدٌ في الاسكندرية مُنطَّق كلهُ بالحديد قذف من الميدان كرةً كبيرة حمراء. وقعت في بحر السلسلة بخارج الباب البحري(١). اما جوسلين فبعد ان سمع هذه الايضاحات لم يطلب عليها مزيداً ولكن لاحت على وجههِ امارات القلق والانزعاج

وكان في الحقيقة يتوقَّع زيارة الامير رزق الله غير انهُ لم يكن يحسب انهُ يفد عليهِ بمثل هذه السرعة. فاضطربت افكارهُ وخطر لهُ في بادئ الامر ان يتحصَّن في قلعتهِ لكنَّهُ بعد التأمل رأى ان ذلك لا يجديه نفعاً وانهُ لا يقوى على الثبات مدَّة طويلة اذا ما حاصرهُ الاهالي الذين كانوا قد سئموا ظلمهُ وعدوانهُ وعضدتهم جنود المقدم مولاه. ومن ثمَّ عدل عن المقاومة الصريحة وآثر الحيلة والخديعة اللتين كانتا سلاحهُ المألوف وعزم على استعمالهما هذه المرَّة ايضاً

ولم يكن ما عدا الجنود المتلطخين بالجريمة كزنيمهم من شاهدٍ على مقتل مالك. فعزم جوسلين على ان يتظاهر بالجهل وانكار كل ما يُنسب اليهِ. ثم انهُ امر الجنود فانزلوا الجسر الثقَّال وفتحوا البوَّابة الكبيرة واقاموا يستعدون في عرصة القصر الداخليَّة لاستقبال الامير رزق الله بالتكريمات العسكريَّة

١٨

ثمَّ ان موكب الامير جاز الجسر الثقَّال ناشراً اعلامهُ ورواياتهِ واصطفَّ العسكر المتأهب للقتال في ساحة القصر الداخليَّة التي اكتظَّت في يسير من الزمان بالجنود والخيل وآلات الحرب. وبحسب اوامر المقدم رزق الله انفصل قسم من رجالهِ لحراسة مدخل الجسر السابق ذكره. واما باب القصر فأبقي مفتوحاً والجسر الثقال منزلاً محافظةً على دوام الاتصال بين الامير وسائر عساكره التي بقيت في خارج القلعة

وبعد ان رتَّب الامير بنفسهِ كل هذه الامور الاحتياطيَّة دخل القصر راكباً وما كاد يترجَّل حتى خاطب جوسلين بقولهِ:

لا ريب ان قدومي اليوم من شأنهِ ان يذهلك يا سيد القلعة

(١) الخلقشندي

فأجاب جوسلين وهو حانٍ رأسهُ احتراماً والابتسام يعلو أسرتهُ تكلفاً: لقد اذهلني كثيراً يا سيدي الامير لاني بالحقيقة ما كنتُ اتوقع هـذا الشرف الوسيم الذي ما عوّدتناهُ من قبل

— ألم يكن من شيء يدلُّك عليه ؟

— كلاَّ يا سيدي الامير لان اتباعك في جبـل اللكّام كانوا يظنون انك ما زلت متشاغلاً بقتال العربان في البقاع

— حقًّا لو كان الله اصاخ لادعيتك لما عدتَ اصلاً من البقاع. ويا ليتك اكتفيت بالادعية فقط ولم تضف اليها الاعمال والمساعي

اما جوسلين فتظاهر انهُ لم يفهم شيئاً من مدلول هذه الكلمات الاخيرة ولذلك اراد الامير رزق الله ان يزيد كلامهُ ايضاحاً فقال:

أتعرف عربان ومتاولة البقاع ونصيريَّة الضنية ؟

— نعم اعرف انهم اعداء بلادي ومتبوعي وهذا غاية ما اعلم من امرهم

— كيف ذلك والكل يؤكدون ان المواصلات بينك وبينهم متتابعة ؟

فأجاب جوسلين دون اضطراب بقولهِ:

نعم ان لي معهم علائق اضطراريَّة لا غير ولولاها لكان يتوالى اذاهم على رعاياي

— لا اقول ان لك معهم علائق ولائيَّـة تقصد منها كفّ تعدّياتهم بل انك متواطئ معهم

— لا اشك ان قوماً من المفسدين هم الذين ايانوا الى سعادتك أموراً غير صحيحة قاصدين تكدير صفو خاطرك على خادمك الامين

— لا تذكر الامانة فقد علّمتنا سيرتك الماضية منزلتك منهـا وقل لي الآن بايّ ضمير — ان كان لك ضمير — اغتنمتَ فرصة العفو الكريم الذي خوّلتك اياه اجابةً لشفاعة الاب يوحنَّا فسطوت على ديرهِ واحرقتهُ وابعدت الاب المذكور الى منفى يقضي فيهِ حياتهُ بالعذاب ؟

— لا صحّة لشيء من هذا كلهِ وانما اقترف هذه الجريمة بعض الشذّاذ من البدو ولم ندرِ بها الّا بعد وقوعها بزمان فما كان في الامكان منعها. ولا ريب عندي في عدلك

واستنا متك فهل يليق بك ان تعاقب البريء بجريرة المذنب

— وكم ارسلتُ اليك من الاوامر طالبًا حضورك فما رددت عليها جوابًا. وقد بعثت بآخر امر مع خادمي مالك ولا بدَّ ان يكون قد انتهى اليك

— هذا اول خبر اسمعهُ لانهُ لم يأتني احد من قبلك على سبيل الاطلاق. على ان الطرق في جبل اللكام غير مأمونة ولو كانت سعادتك تشرفنا بزيارتها مرة بعد اخرى لتأكدت ان لنا نحن عبيدها المخلصين فضلًا عظيمًا في الاقامة بهذه الجهات. ولعلَّ الاسماعيليَّة النازلين في مصياد او الرصافة ونصيريَّة برج مقصور يعلمون شيئًا من اخبار الخادم الذي ارسلتهُ الى هنا لان جماعاتهم المتسلحة لا تزال تتجوَّل دائمًا في هذه النواحي وكلهم اعداء للمسيحيين فلا يبعد ان يفتكوا بخيَّال سائر وحدهُ

ثمَّ لا يخفاك ان النصيريَّة بعد ان طُردوا من بلاد البترون والجهات الاخيرة التي كانوا يحتلونها في جبل لبنان (١ اصبحوا يبغضون اللبنانيين بغضًا عظيمًا ولاجل تأصل البغضة وتمكنها في قلوبهم تراهم في كل حفلاتهم واجتماعاتهم الدينيَّة يلعنون القديس يوحنَّا مارون(٢ . واظنُّ كل الظن انَّ مالكًا ذهب بايديهم ضحيَّة عن قومهِ. وحوادث القتل تقع كل يوم ولحظة في هذه الجهات فاذا كانت الاحوال سيئة عندنا فما نحن بمسؤولين عنها بل افنا اول من يشكو منها

— اعلم ان كثيرين شاهدوا مالكًا قد مرَّ في قامة فليس وحالات وبرج صافيتا وحصن سليمان وغير ذلك من الاماكن التي على الطريق ولم تختفِ آثاره الَّا بعد وصولهِ الى قصرك فكيف تشرح هذا؟

— لا اعرف شيئًا بل اؤكد لك ثانيةً انهُ لم يأتِ الى هنا احد من قبلك. واذا شئت فاسأل جميع هؤلاء الناس الذين يقيمون عندي وفتش جميع مخابئ القلعة وانا اول من يعاونك على التحقيق ولا ريب عندي انهُ سيثبت لك براءتي من كل تهمة باطلة

ثمَّ ان جوسلين اخرج مجموعة من المفاتيح وتهيأ للسير فتبعهُ الامير رزق الله مصحوبًا بعدد من رجالهِ حاملين المشاعل وفحص بكل تدقيق كل ما هناك من المخابئ

(١ ابو الفداء والدمشقي وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى
(٢ الباكورة السليمانيَّة (ص ٤٥)

فلم يعثر على شيء . وكانت الحجابُ المذكورة مصنوعة في داخل الاسوار الضخمة على شكل لا ينبئ ظاهرهُ بوجود شيء منها

ثم انهم نزلوا الى الاقبية المنقورة في جوانب الجبل بعضها لخزن الاسلحة والأقوات والبعض الآخر للسجون . فلم يجد الامير في الاقبية المذكورة الّا اشخاصاً قلائل من الفلاحين كان جوسلين قد زجّهم في الحبس مقيدين بالسلاسل لغير ذنب يوجب ذلك . وكان في جملتهم الراعي عبد الله الذي مرّت عليك حكايتهُ . فامر المقدم رزق الله حالاً باطلاق سراحهِ واقبل على تتمّة البحث والتفتيش غير انهُ لم يتصل الى مرامهِ

وكان جوسلين يتظاهر بالمسرّة والابتهاج مدّعياً بظهور براءتهِ ممّا قذف بهِ ولكن الامير رزق الله لم يقتنع بذلك وظلّ قلقاً تم التفت الى جوسلين

— اكرّر عليك القول بان كثيرين من القوم الصادقين اكدوا لي انّ مالكاً دخل قصرك فعليك اذاً ان تؤدي لي حساباً عن كل ما جرى لهُ من ساعة ولوجهِ الى هذا المكان . فاذا كنت ترجو مني عفواً فاعلم ان أقرب وسيلة للعفو هي ان تعترف لي بكل شيء . . . فتأمل

(ستأتي البقيّة)

المئة الثانية

لانشاء الرهبانية المكيتارية

لمنة تاريخية للاب لويس شيخو اليسوعي

في اليوم الثامن من ايلول المتصرم ازدانت احدى جزائر مدينة البندقيّة بابهى حلاها . فكنت ترى جزيرة سان لازار (القديس لعازر) وابنيتها تخفق فوقها الرايات والاعلام وتزينها الزهور واكاليل النار . وكانت الاجراس تعلن بافراح اهلها لكل الضواحي وتدعوهم الى مسرّات العيد . وكان البنادقة يزدحمون في شوارع الجزيرة وحدائقها ينتظرون بفروغ الصبر افتتاح الحفلات البهجة التي أُعدّت لذلك اليوم الجليل

وان سألنا السائل وما كان الداعي لدقّ البشائر واقامة تلك الافراح اجبنا انّ